مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 14، العدد. 4، (السداسي الثاني 2022م)، ص. 551 – 582

عدد خاص بالملتقى الدولي
(العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري)

القيم الأخلاقية في علوم الحديث وأسس تفعيلها في الدرس الحديثي المعاصر

Ethical values in the science Hadith and the foundations of its activating in the cotemporary Hadith lesson

د. فاطمة الزهراء سواق*
جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، مخبر الشريعة (الجزائر)
f.saouag@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/06/07 تاريخ القبول: 2022/07/02 تاريخ النشر: 2022/11/30

ملخص:

لقد تناول هذا البحث دراسة القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي منذ نشأتها من خلال تتبع أشهر ما صنِّف فيها رواية ودراية، للتأكيد على أصالة وجوهرية الأخلاق في هذا العلم كما ورد على لسان علمائه في مصنفاتهم المختلفة، ولإبراز النفحة الأخلاقية في بعض المباحث المنطوية ضمنه، والتي خصّص بعضهم الحديث عنها في مؤلفات مستقلة فضلا عن الكتب الشاملة لكافة مباحثه، وكذلك للنظر في التأصيل الأخلاقي لبعض العلوم المصنفة ضمن أنواعه، والتنويه بعناية أصول الحديث النبوي المرتبة على الموضوعات بباب الأخلاق من خلال عناوين الكتب وتراجم الأبواب، وتبحث في الوقت ذاته آفاق تفعيل هذه القيم الأخلاقية في الدرس الحديثي المعاصر من خلال تقييم الحضور الأخلاقي فيه تدريسا وبحثا وتصنيفا، وطرح مقترحات عملية لتجاوز تغييب هذه القيم عن المنظومة التعليمية في مقررات تدريس علوم الحديث، وقد أسفرت هذه الدراسة عن عمق العلاقة بين الأخلاق وعلوم الحديث النبوي في تأصيلاتها ومباحثها والكتب المصنفة فيها، وأن استرداد هذه القيم في الدرس الحديثي المعاصر ضرورة ملحة في سبيل استعادة الدور الحضاري للعلوم الشرعية.

الكلمات المفتاحية: القيم الأخلاقية؛ علوم الحديث؛ آداب المحدث؛ آداب طالب الحديث؛ الأخلاق وعلوم الحديث.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This research study ethical values in the science of Hadith since its inception, by following most famous books in its both genres: narrating and knowledge, in order to confirm the authenticity of morals in this science, and to show the moral characteristic in some of its branches, also look at the ethical rooting of some of the sciences classified within its types, and to show the care of the origins of Hadith arranged on topics with the issue of morals through the titles of books and chapters.

This study also examines the prospects for activating these moral values in the cotemporary Hadith lesson by evaluating the ethical presence in it, and propose solutions to overcome the absence of these values in university teaching programs.

This study has resulted in the fact that the relationship between ethics and Hadith science is very deep, and that the recovery of moral values in the cotemporary Hadith lesson is an urgent necessity to restore the civilized role of the Islamic sciences.

Keywords: moral values; science of Hadith; etiquette of Hadith scholars; etiquette of Hadith students; ethics and Hadith.

مقدمة:

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وأزكى صلاة وسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين ليعلِّمهم ويزكيهم ويهذبهم، أما بعد:

لقد حوت كتب علوم الحديث التنظيرية الجامعة، أو التي استقلت بالتنظير لأخلاق وآداب أهل الحديث، وكذلك مصادر السنة النبوية المرتبة على الموضوعات إشارات قوية لجوهرية الأخلاق في علوم الحديث النبوي، بل لعل من أبرز العلوم الشرعية وأوّلها تبنّياً للقيم الأخلاقية في انطلاقها التأصيلي، وفي التأسيس لفنونها ومباحثها، وفي تصانيفها المختلفة: علوم الحديث النبوي، ويكفي أن الأس المتين الذي انطلق منه علم الإسناد الحديثي وما انبثق عنه من علوم الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف والقواعد المتعلقة بها هو هذه الآية الكريمة من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾

فهذه الآية ذات مضمون أخلاقي من حيث ضبطها آلية تلقي الأخبار والأنباء في التمحيص والتحقيق صونا للأفراد من إيقاع الضرر ببعضهم البعض على سبيل الجهالة إذا صدّقوا ما سمعوا دون التحري في صحة المسموع، وهذا الإضرار بقصد أو بدونه ليس من مكارم الأخلاق، وقد عرّف عبد الله بن المبارك حسن الخلق مع الناس بقوله: ((هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى)) [1].

والحقيقة أن المنظومة الأخلاقية في علوم الحديث النبوي ثرية جدا، ومعالمها متنوعة، وهي في الأصل ملازمة لها لا تفارقها، إلا أن قوتها وأصالتها في مضمون هذه المعارف الحديثية قد غُيّبت أو ضُعِّفت بشكل أو آخر في الدرس الحديثي المعاصر، وعليه تهدف هذه الدراسة إلى كشف الحجب عن تلك العلاقة الثابتة بين الأخلاق وعلوم الحديث النبوي، وتبحث في الوقت نفسه من خلال معالم وتجليات تلك العلاقة عن آليات وأسس تبني عليها لإعادة استرجاع الروح الأخلاقية في الدرس الحديثي المعاصر لما لها من أهمية في تفعيل الدور الحضاري للعلوم الشرعية التي يعتبر علم الحديث بمختلف أنواعه من أشرفها لتعلقه بالسنة النبوية وما لحفظها وحسن فهمها من أثر في حفظ الدّين.

وقد سعت الدراسة إلى بيان كل ذلك من خلال محاولة الإجابة عن **إشكالية البحث** التي يمكن صياغتها في الأسئلة التالية:

هل القيم الأخلاقية حاضرة فعلا في علوم الحديث النبوي؟، وما هي معالمها وتجلياتها؟ وكيف يمكن التأسيس عليها في تقويم الدرس الحديثي المعاصر أخلاقيا تحقيقا لمقصد مساهمة العلوم الشرعية في بعث مكارم الأخلاق في أمة الإسلام وتفعيل دورها الحضاري؟

وقد درستُ هذه الإشكالية وفق الخطة العلمية التالية:

المبحث الأول: القيم الأخلاقية وأصالتها في علوم الحديث النبوي

المطلب الأول: مفهوم القيم الأخلاقية وعلاقتها بالعلوم الشرعية

المطلب الثاني: أصالة القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي

المبحث الثاني: معالم القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي

المطلب الأول: الكتب والتراجم الأخلاقية في مصنفات السنة المرتبة على الموضوعات

[1] رواه الترمذي في جامعه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم 2005، ص334.

المطلب الثاني: المباحث الأخلاقية في كتب مصطلح الحديث

المطلب الثالث: التأصيل الأخلاقي لبعض أنواع علوم الحديث

المبحث الثالث: واقع الأخلاق وأسس بعثها في الدرس الحديثي المعاصر

المطلب الأول: البرامج التدريسية في علوم الحديث

المطلب الثاني: البحوث الأكاديمية في علوم الحديث

المطلب الثالث: التصنيف في علوم الحديث.

المبحث الأول: القيم الأخلاقية وأصالتها في علوم الحديث النبوي:

يدرس هذا المبحث مفهوم القيم الأخلاقية والمراد منه في هذه الدراسة لينطلق منه إلى بحث أصالة هذه القيم عند المحدثين قولا وسلوكا.

المطلب الأول: مفهوم القيم الأخلاقية وعلاقتها بالعلوم الشرعية:

يعتبر مصطلح القيم الأخلاقية من المصطلحات الحديثة نوعا ما، إذ لم يكن تداوله عند الأوائل بهذا المسمى، وفي هذا المطلب بيانٌ لمفهوم هذا المصطلح المركب، ثم كشف العلاقة بينه وبين العلوم الشرعية مجملا.

1. تعريف القيم الأخلاقية لغة واصطلاحا:

يعتبر مصطلح القيم الأخلاقية مركبا وصفيا يتطلب الوقوف على ماهيته تفكيك شقيه المركِّبين له ومعرفة معنى كل واحد منها لغة واصطلاحا:

القيم لغة: جمع قيمة، وأصله الواو من قوّم السلعة بمعنى قدّر سعرها، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم، أي ما يقوم مقام الشيء، ومن مرادفاته عند أهل مكة الاستقامة، ففي كلامهم: استقمتُ المتاع بمعنى قوّمته، وقيمة كل شيء قدره، ومن معاني التقويم والاستقامة: الاعتدال وإزالة الاعوجاج، ومن معانيها الثبات والاستمرار، يقال: ما له قيمة، أي: ما له ثبات ودوام على الشيء، وقوام كل شيء: عماده ونظامه[1]، وفي معجم اللغة العربية المعاصرة : ((القيم: الفضائل الدينية والخلقية والاجتماعية التي تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني)) [2]، وهذا التعريف ينسجم مع المفهوم الاصطلاحي للقيم ، وتحضر فيه كل المعاني اللغوية السالفة الذكر، فالقيم لها قدر ثابت بين الناس، وبها تنتظم حياتهم وعلاقاتهم بما تدعو له من اعتدال واستقامة.

وفي الاصطلاح: يعتبر مصطلح القيمة من المصطلحات المتداولة في علوم الأخلاق والاجتماع والفلسفة والنفس والاقتصاد، ويعرفونها بعبارات مختلفة تنسجم مع الحقل المعرفي المنتمية له، والذي يهمنا هو التعريف المرتبط بفلسفة الأخلاق لأنه هو موضوع بحثنا، وقد استخدِم المصطلح للدلالة على المعيار الذي يوجِّه السلوك الإنساني نحو الإيجابية والانضباط والخيرية.

---

[1] لسان العرب لابن منظور، 5/ 3783، المعجم الوسيط، ص768.

[2] معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر، 1878/3.

يقول جميل صليبا: ((ويطلق لفظ القيمة في علم الأخلاق على ما يدل عليه لفظ الخير، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه من خيرية، فكلما كانت المطابقة بين الفعل والصورة الغائية للخير أكمل، كانت قيمة الفعل أكبر))[1]، وعليه فإن القيمة صفة تجعل جملة من التصرفات والسلوكيات الإنسانية مطلوبة ومرغوبة لما فيها من خير ومصلحة للفرد وللجماعة المحيطة به، وكلما زادت خيرية هذه السلوكيات ازدادت قيمتها.

ولعل معايير الحكم على السلوكيات الإنسانية بالخيرية والإيجابية تختلف من بيئة إلى بيئة تبعا للدين والعرف السائد فيها، ولما كان مجال الدراسة له ارتباط بالحضارة الإسلامية فإني لن ألتفت إلى التعريفات الكثيرة التي أعطيت لمصطلح القيمة باعتبارات مختلفة، وأختار في تقريب مفهومها تعريفا يراعي البعد الإسلامي في تصور ماهية القيم.

والتعريف المختار هو: ((حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محددا المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك))[2]، فما كان مرغوبا فيه في الإسلام من سلوك شرعا وعرفا فإنه يمتلك حكما إيجابيا، ويكون محل تقدير واهتمام وقبول بين الناس، وقد أشار التعريف ضمنا إلى اعتبار العرف في تبني بعض القيم، فهو داخل عنده في قوله: المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع، حيث لم يشترط فيها ما نص عليه الشرع، والعرف الذي ليس فيه مخالفة لدليل شرعي معتبر في الإسلام[3].

وأما الأخلاق لغة: فهي جمع خلُق، والخلُق: الدين والطبع والسجية، أو هو صورة الإنسان الباطنة وأوصافها ومعانيها المختصة بها حسنة كانت أو قبيحة، أي هي حال للنفس تصدر عنها الأفعال سواء كانت خير أو شرا دون تفكير وتكلّف[4].

وفي الاصطلاح: لا يختلف التعريف الاصطلاحي للأخلاق عن مضمونها اللغوي، حيث عرفها الجرجاني في "معجم التعريفات" بقوله: ((الخلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية))[5]، ثم فرّق بين هذه الأفعال من حيث الحسن والقبح، وعلى أساسها تكون الأخلاق حسنة أو سيئة، فالهيئة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا تمثل الأخلاق الحسنة، والهيئة التي تصدر عنها الأفعال القبيحة عقلا وشرعا هي الأخلاق السيئة.

---

[1] المعجم الفلسفي لجميل صليبا، 2/ 212.

[2] الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية للشحات، ص 20.

[3] علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، ص79.

[4] لسان العرب، 1245/2، والمعجم الوسيط، ص 252.

[5] معجم التعريفات للشريف الجرجاني، ص89.

وهذا يتفق ما ورد في الحديث النبوي الصحيح، حيث ثبت عن النبي ﷺ دعاؤه إذا قام إلى الصلاة بقوله: «... واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيّئها لا يصرف عني سيّئها إلا أنت»[1]، ففي الأخلاق ما يوصف بالحسن، وفيها ما يوصف بالسوء.

مفهوم القيم الأخلاقية كمصطلح مركب:

لمّا كانت الأخلاق سجية في النفس تتراوح ما بين الحسن والقبح، وكانت القيم أحكاما معيارية لكل ما هو مرغوب فيه من سلوكيات فإن دلالة المصطلح المركب تنصرف إلى الأخلاق المرغوب فيها دون المرغوب عنها، أي الأخلاق الحسنة والحميدة أو مكارم الأخلاق، وعلى هذا المعنى يأتي استعمالها في هذه الدراسة.

2. علاقة القيم الأخلاقية بالعلوم الشرعية إجمالا:

لم تخل العلوم الشرعية على مراتب متفاوتة في تأصيلاتها ومباحثها وما صُنّف فيها من نفحات أخلاقية تنمّ عن تلك العلاقة المتلازمة بينها وبين مقصد جليل نوّه به النبي ﷺ حين قال: «إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[2]، وكأنّ الرسول الكريم ﷺ لخّص رسالة الإسلام العظيمة بكل مضمونها الروحي والعبادي والسلوكي والعملي والتفاعلي والكوني والحضاري في الأخلاق لما لها من قيمة وازنة في تحقيق مناط الاستخلاف في الأرض من توحيد وعبادة ودعوة وعمارة على مستوى الفرد والجماعة، قال ابن عبد البر: ((ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل))[3].

وعليه فإنّ الفصل بين الأخلاق الحسنة وبين الإنسان المخاطب بالوحي في أي منزلة أو مرتبة كان عليها هو حال غير سوي، وغير متناغم مع مقصد الإسلام في التأسيس الأخلاقي لمنظومة المجتمع المسلم الملتزم، إذ الأخلاق في مفهومها الواسع تطبع حياة المسلم كلها عقيدة وعبادة وسلوكا، ولا أدل على ذلك من وصف أم المؤمنين عائشة ﵂ لخلُق النبي ﷺ حين سئلت عنه بقولها للسائل – وهو سعد بن هشام –: ألست تقرأ القرآن، قال: بلى، قالت: «فإن خلُق نبي الله ﷺ كان القرآن»[4].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم771، ص 305.

[2] أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، رقم8952، 14/512-513 ، والحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب آيات رسول الله ﷺ في دلائل النبوة، رقم 4280، 2/720، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وراه مالك بلاغا في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم2633، 2/490، وقد وصل ابن عبد البر في التمهيد 24/ 333 رواية مالك من طرق ووصفها بأنها صحاح عن أبي هريرة وغيره، وساقه بإسناده من طريق أبي صالح عن أبي هريرة ، وقال : حديث مدني صحيح، وقال في الاستذكار 26/127: حديث مسند صحيح ، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[3] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، 24 /332.

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم 746، ص293.

وقد اشتمل القرآن الكريم الدينَ كله، وهذا ما فهمه شراح السنة من هذا الحديث، قال النووي: ((معناه العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته))[1]، وكذلك قال المناوي: ((أي ما دل عليه القرآن من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده إلى غير ذلك))[2]، وقبله ابن قيم الجوزية: ((... فهذه كانت أخلاق رسول الله المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له وتبيينا، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه، والجهاد في إقامته))[3].

وعليه فقد كان خلُق الرسول الكريم هو الدين كله، ولهذا فسر ابن عباس وغيره قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[القلم 4]، بأنه كان على دين عظيم، وهو الإسلام[4]، وتوجيه تسميه الإسلام وشرائعه خلُقا كون ((الخلُق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقا، هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها))[5].

وعليه فالأخلاق في الإسلام حاضرة في كل المجالات العقدية والتعبدية والعملية والسلوكية والعلمية، والمسلم مطالب بالاجتهاد في طبع كل أعماله وأقواله وأحواله بمحامد الأخلاق أسوة واقتداء بالرسول ﷺ امتثالا لأمر الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب 21]، ومن هذه الأحوال التي لا ينبغي أن تنفصل عن الأخلاق العلومُ الشرعية التي هي بيان الدين الذي ارتضاه الله للعباد، بل تتأكد فيها ألحّية استحضار البعد الأخلاقي لمسؤولية العلماء في تبليغ الدين ونشر علومه خلفا للأنبياء .

---

[1] المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، ص 511.

[2] فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، 170/5.

[3] التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، ص144.

[4] جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري، 150/23-152.

[5] التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، ص 144.

وقد أدرك أهل العلم الأوائل هذه الرابطة الأصيلة بين العلوم الشرعية والأخلاق والآداب، فتعلموها كما تعلموا العلم، وقد وصف محمد بن سيرين علماء التابعين بقوله: ((كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم))[1]، ونصح الإمام مالك فتى من قريش بذلك، فقال: ((يا بن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم))[2]، وحرص من جاء بعدهم على التنويه بأهمية القيم الأخلاقية في العلوم من خلال تخصيص مباحث للحديث عن تلك الآداب والأخلاق في مؤلفاتهم المختلفة، فوُجِد في كل نوع من أنواع العلوم الشرعية من كَتب في آداب المشتغلين بذلك النوع كآداب حملة القرآن[3]، آداب المفسرين[4]، آداب الفقهاء[5]، وآداب المحدثين... وغيرها في مؤلفات الفن العامة أو في كُتب مستقلة، ومنهم من كَتب في أخلاق العلماء عامة، ومن أقدم من صنّف في ذلك أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري (ت360هـ)، وكذلك صنّف أبو حامد الغزالي(ت505هـ) رسالة في "الأدب في الدين"، ضمّنها جملة من الآداب منها ما يتعلق بالعلوم الشرعية وطلبها، وهي: آداب العالم، آداب المتعلم مع العالم، آداب المقرئ، آداب القارئ، آداب معلم الصبيان، آداب المحدث، وآداب طالب الحديث[6]، ولقد كان الحضور الأخلاقي في علوم الحديث النبوي قوي جدا مقارنة مع العلوم الشرعية الأخرى، وهو ما سيأتي بيانه في المطلب الموالي.

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، 121/1.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، 330/6.

[3] من ذلك كتاب التبيان في آداب حملة القرآن لأبي زكريا يحيى النووي، وفيه بيان آداب طلبة القرآن وحفظته ومعلميه.

[4] ضمت مقدمات بعض كتب التفسير بعض الإشارات إلى الأخلاق في ثنايا الحديث عن شروط المفسر، واستمر الأمر نفسه في كتب علوم القرآن التي خصصت مباحث لشروط المفسر وآدابه ككتاب البرهان للزركشي والاتقان للسيوطي وغيرها، وإن كان فيها مزج كبير بين الأخلاق والآداب والشروط العلمية في التفسير، وللسيوطي كتاب مطبوع بعنوان: "شروط المفسر وآدابه".

[5] ممن نوّه بآداب وأخلاق الفقهاء الخطيب البغدادي في كتابه "الفقيه والفقيه، حيث ضمّنه الحديثَ عن أدب الجدال والمناظرة، أخلاق الفقيه وآدابه، آداب التدريس، وآداب المفتي والمستفتي.

[6] طبعت هذه الرسالة مع رسائل أخرى للإمام أبي حامد الغزالي تحت عنوان: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، بتحقيق إبراهيم أمين محمد وإصدار المكتبة التوفيقة بالقاهرة.

المطلب الثاني: أصالة القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي:

لقد تجذّرت الأخلاق في علوم الحديث النبوي منذ نشأتها المعنوية بإذن النبي ﷺ بالرواية عنه من حيث مضمون المروي وآداب الرواية عنه، فمن المروي عنه أخلاقٌ فريدة أثنى عليها الله تعالى بثنائه على نبيه في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4]، وقد كان خلقه ﷺ القرآن كما في حديث عائشة السابق ذكره، ومن المروي عنه أيضا جملة وافرة من التعاليم النبوية التي تربي المخاطبين على الأخلاق والقيم على سبيل التعميم والتخصيص، فمن الأول قوله ﷺ: « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا »[1]، وأما الثاني فنظير قوله ﷺ للأشج ﷺ: « إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة »[2]، ومنه قوله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير »[3]... وغيرها كثير جدا، ولعله يكفي في بيان وفرتها بما يغني عن التمثيل لأفرادها الحديث الذي مرّ قريبا : «إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» .

أما من حيث آداب الرواية عنه فإنه ﷺ كان أوّل من أصّلها لمّا قال: «بلّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عَلي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[4]؛ حيث أجاز الرواية عنه شريطة تحري خلق الصدق فيما يُنقل عنه من وحي القرآن أو من سنته الشريفة، بل أشار إلى أدب مهمّ في تحري الصدق في الرواية عنه في حديث آخر، وهو عدم تحديث الرجل بكل ما سمع، فقال: «كفى بالمرء كذبا أن يحدِّث بكل ما سمع»[5]، فمثّلت هذه النصوص الحديثية مادةً استند إليها المنظِّرون في علوم الحديث في التأصيل لأخـــلاق

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم 3559، ص682، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم 2321، ص 949.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى، رقم 18، ص 41.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم 6117، ص 1180، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، رقم 37، ص 48.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، 3461، ص666.

[5] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه موصولا ومرسلا، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم 5، ص22، وأخرجه أبو داود في سننه كذلك ، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم 4992، ص540، وأخرجه ابن حبان وصححه في مقدمة صحيحه، باب الاعتصام بالسنة ، رقم 30، 213/1 ، وأخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين موصولا ومرسلا، كتاب العلم، باب كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع، رقم 381و382، 183/1-184، والحديث لم يسنده إلا علي بن حفص المدائني مخالفا عبد الرحمان بن مهدي ومعاذ العنبري وغيرهم ، لذا رجح الدارقطني في العلل 10/ 275 أن الصواب هو المرسل، ومن صحح الحديث فبناء على قبول الزيادة من الثقة ، كذا قال الحاكم تعليقا على الحديث، وقد صححه أيضا ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 1011/2، وابن حجر في فتح الباري 3/ 2634، والسخاوي في فتح المغيث268/3، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان 214/1 : ((ولا يضر إرسالهم ، فإن الوصل زيادة ، وهي من الثقة مقبولة)).

هذه النصوص الحديثية مادةً استند إليها المنظِّرون في علوم الحديث في التأصيل لأخلاق وآداب المحدّثين في الرواية، فالإنسان يسمع الصدق والكذب، فإذا حدّث بكل ما سمع فإنه قد يحدِّث بالكذب، فيكون كاذبا، لأن الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف حقيقته حقيقته وإن لم يتعمد ذلك[1]، وقد بُني على هذا الخبر وغيره أن من يحدِّث بكل ما سمع يكثر الخطأ في روايته فيترك الأخذ عنه، وهذا معنى قول الإمام مالك: ((اعلم أنه ليس يسلم رجل حدّث بكل ما سمع، ولا يكون إماما أبدا وهو يحدِّث بكل ما سمع))[2].

لقد تلقى أهل الحديث الرسائل الأخلاقية التي تعج بها الأحاديث النبوية الشريفة وفهموا مغزاها جيدا، فأدركوا أن مكارم الأخلاق هي روح العلم الذي يبتغى به وجه الله تعالى، فانعكس ذلك في كلامهم وسلوكهم، من ذلك ما روي عن ابن شهاب الزهري قال: ((إن هذا العلم أدب الله الذي أدّبه نبيه ﷺ، وأدّب النبي ﷺ أمته، أمانة الله إلى رسوله ليؤدّيه على ما أدّي إليه))[3]، ومن ذلك ما روي عن حميد بن هلال قال: ((دخلت الكوفة وجلست إلى الربيع بن خثيم فقال: يا أخا بني عدي، عليك بمكارم الأخلاق فكن بها عاملا، ولها صاحبا، واعلم أن الذي خلق مكارم الأخلاق لم يخلقها ولم يدلّ عليها حتى أحبّها وحبّبها إلى أهلها))[4].

بل قد أدركوا أن حاجتهم إلى التخلّق بمكارم الأخلاق ألحّ من التوسع في طلب الحديث وروايته فتمثّلوها في سلوكهم، وفي ذلك روي أن مخلد بن حسين خاطب ابن المبارك قائلا: ((نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث))[5]، كما فهموا أن التأدّب بأخلاق المحدثين أسبق من الطلب فتأدَّبوا قبل أن يطلبوا، وفي ذلك يقول سفيان الثوري: ((كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدّب وتعبّد قبل ذلك بعشرين سنة))[6].

---

[1] المنهاج في شرح صحيح مسلم ابن الحجاج للنووي، ص 48-49.

[2] أخرجه مسندا إلى الإمامِ مالك الإمامُ مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ص22.

[3] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، 120/1.

[4] مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، ص29-30.

[5] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، 122/1.

[6] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، 361/6.

الشاهد أن اشتغال المحدِّث أساسا بالسنة النبوية روايةً وتمحيصاً وفهماً يجعل العلاقة بين علوم الحديث المتنوعة والروح الأخلاقية المتجلية في كمّ كبير من الأحاديث النبوية حقيقة ثابتة لا يمكن فكّها بحال، وقد وعى منظِّرو علوم الحديث أصالة هذه العلاقة في مضمون علوم الحديث، فتواردت أقوالهم على التنويه بأهمية الأخلاق في علوم الحديث منذ الكتابات التأصيلية الأولى، ومن أقدم من أشار إلى سرّ هذه العلاقة بين الأخلاق وعلوم الحديث النبوي الخطيب البغدادي الذي له عناية خاصة بآداب وأخلاق المحدثين من خلال تصنيفه في ذلك، يقول: ((والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبا، وأشدّ الخلق تواضعا، وأعظمهم نزاهة وتديّنا، وأقلّهم طيشا وغضبا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدّثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها، ويصدوا عن أرذلها وأدونها))[1].

واستمر المنظرون في علوم الحديث بعده تباعا على سيرة التأكيد على أصالة وجوهرية الأخلاق في مختلف معارفها، حيث تحدّث أبو عمرو بن الصلاح عن تلك الأصالة مؤكِّدا على أن علوم الحديث تتنافر مع مساوئ الأخلاق، فقال: ((علم الحديث علم شريف يناسب مكارم الأخلاق ومحاسن الشّيَم، وينافر سيء الأخلاق ومشاين الشّيَم))[2]، وبعبارة قريبة قال النووي: ((علم الحديث شريف، يناسب مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم))[3]، وقال ابن دقيق العيد أن ما يلزم طالب الحديث بعد حسن النية ((أن يأخذ نفسه بالأخلاق الزكية والآداب المرضية))[4]، ونقل ابن كثير عن غيره من أهل الحديث ألحّية تحلّي المحدّثين بمكارم الأخلاق، فقال: ((قالوا: وينبغي أن يكون المحدِّث جميل الأخلاق، حسن الطريقة، صحيح النية))[5]، وأشار ابن حجر إلى أن تحسين الخلق من الآداب المشتركة المطلوبة في الشيخ والطالب، فقال: ((ويشتركان في تصحيح النية والتطهر من أعراض الدنيا وتحسين الخلق))[6].

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، 119/1.

[2] علوم الحديث المشهور بمقدمة ابن الصلاح، ص236.

[3] تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي، ص 245.

[4] الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد، ص 371.

[5] اختصار علوم الحديث لابن كثير، ص244.

[6] نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني، ص146.

فهذه نماذج من عبارات من كتَب في علوم الحديث تأصيلا تتفق جميعها على أن حسن الخلق رغيبة لازمة في المحدِّث الذي يعيش أكثر من غيره في كنف السنة النبوية روايةً ودرايةً غارِفا من أخبارها ما فيها من تعليمٍ وحثٍّ على مكارم الأخلاق، وقد امتثل المحدّثون لهذه الرغيبة فتجلى في أعمالهم في خدمة السنة النبوية الحرص على القيم الأخلاقية، وهو ما سيأتي بيانه في المطلب الموالي من المبحث الثاني.

المبحث الثاني: معالم القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي:

يرسم هذا المبحث المعالم الكبرى التي تجلت فيها القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي من خلال تتبع جهود المحدّثين في خدمة هذا العلم، وتندرج في علوم الحديث مختلف الأنواع الخادمة للسنة النبوية رواية ودراية، وقد تجلى في القسمين معا حرص المحدّثين على التحلّي بمكارم الأخلاق في روايتهم للحديث وتمحيص الصحيح منه من الضعيف وطلب علومه والتصنيف فيه، وفيما يلي بيان أهم هذه المعالم:

المطلب الأول: الكتب والتراجم الأخلاقية في مصنفات السنة المرتبة على الموضوعات:

لقد كان من المسالك التي نهجها المصنِّفون في رواية وجمع السنة النبوية ترتيب أحاديث مصنفاتهم على الموضوعات، ولقد أخذ موضوع الأخلاق حيّزا مهمّا في كتب وأبواب مصنفاتهم المتنوعة ما بين جوامع وسنن وموطآت ومصنفات وأجزاء حديثية، وفيما يلي بيان لذلك الحضور الأخلاقي في الترتيب الموضوعي لأشهر مصادر السنة النبوية:

الجوامع:

هي المصنفات الحديثية التي اشتملت على كل أبواب الدين [1]، ومن أشهرها وأصحّها جامعا الإمامين البخاري ومسلم، وقد ضمّنا صحيحهما كتبا تتقاطع في مضمونها مع موضوع الأخلاق، وإن كانت في حقيقتها إما أوسع أو أضيق منه، وهي: كتاب الأدب وكتاب الرقاق عند الإمام البخاري[2]، وكتب: الآداب، البر والصلة والآداب، والزهد والرقائق عند الإمام مسلم[3]، وقد تضمّنت هذه الكتب في أبوابها أحاديث محاسن الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم في علاقته مع غيره، وأحاديث في تهذيب الجانب الأخلاقي في علاقة الإنسان مع ربه، فضلا عن اشتمال الصحيحين أحاديث في موضوعات مختلفة حملت في صياغتها إشارات أخلاقية،

[1] معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه لأبي الليث الخير آبادي، ص 49.

[2] صحيح البخاري، ص 1158، ص 1232.

[3] صحيح مسلم، ص882، ص 1029، ص1187.

مثل باب إطعام الطعام من الإسلام، وباب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وكلاهما في كتاب الإيمان من صحيح البخاري[1]، كما أخرج مسلم في كتاب الإيمان مثلا أحاديث الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا على الخير[2]، وهذا استنباط قوي منهما للدلالة على أصالة الأخلاق ودخولها في مسمى الإيمان والإسلام.

ولعل الأخلاق أوسع من أن تُحصر في باب معين، إذ لا يكاد يخلو باب من أبواب الدين في علاقة الإنسان مع ربه، أو مع ذاته، أو مع غيره من ضوابط أخلاقية قولية وعملية تهذِّب هذه العلاقات، وقد سلف التدليل في المبحث السابق أن الأخلاق في مفهومها الواسع تشتمل الدين كله، وما من قول أو فعل أو سلوك دعا إليه الإسلام إلا وله خلق خاص به ليرتقي بصاحبه إلى أعلى الدرجات، ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»[3]، حيث جعل كمال الإيمان في كمال الخلق، ومن هذا القبيل مثلا في جانب العبادات وصية النبي ﷺ للصائم: «...وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يصخَب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم»[4]، وغيرها من الأمثلة الحديثية التي تؤكد على أن الروح الأخلاقية تستغرق شرائع الإسلام كلها، وهي مغروسة في مختلف الأحاديث النبوية مهما كانت موضوعاتها في هذه المصنفات الحديثية.

---

[1] صحيح البخاري، ص 29.

[2] صحيح مسلم، ص50-51.

[3] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم 4682، ص 510، والترمذي في جامعه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم1162، ص 206، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان 227/2، وصححه الحاكم في مستدركه على الصحيحين 1 /41، وقال: ((هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم))، وصححه بمجموع طرقه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند 12 / 364 (رقم الحديث 7402).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقل إني صائم إذا شتم، رقم 1904، ص 362، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم1151، ص444.

السنن:

هي المصنفات الحديثية التي تشتمل على أحاديث الأحكام المرفوعة للنبي ﷺ[1]، وعلى الرغم من عنايتها في أصل تصنيفها برواية أحاديث الأحكام وترتيبها على الموضوعات الفقهية المعروفة، إلا أن السنن لم تخلُ من الكتب التي تتقاطع في مضمونها مع الأخلاق، حيث أدرج الإمام أبو داود ضمن كتب سننه كتاب الأدب[2]، ومثله صنع الإمام الترمذي الذي ضمّن أحاديث الأخلاق أبوابَ الأدب، وأبواب البر والصلة من سننه[3]، وأخرج الإمام النسائي أحاديث الأخلاق في كتاب الإيمان وشرائعه[3] على طريقة البخاري ومسلم في تخريج بعض أحاديث الأخلاق في كتاب الإيمان، وخصّص أيضا الإمام ابن ماجة ضمن سننه كتابا للأدب وكتابا للزهد[4].

الموطآت:

هي المصنفات الحديثية التي تشتمل على الأحاديث الفقهية، وفيها المرفوع والموقوف والمقطوع، بالإضافة إلى آراء المصنف[5]، والمحفوظ منها هو موطأ الإمام مالك، ولم يخل كتابه من أحاديث الأخلاق، حيث ختم موطأه بكتاب جامع ضمه أحاديث في غير موضوع الفقه والأحكام، منها أحاديث في حسن الخلق وأخرى في صنوف متنوعة من مكارم الأخلاق كالحياء والصدق وحفظ اللسان والرفق... وغيرها.

المصنفات:

وهي مثل الموطآت في طريقة تصنيفها، تشمل المرفوع والموقوف والمقطوع من أحاديث الأحكام، غير أنها لا تتضمن آراء المصنف[6]، ومن أشهر المصنفات: مصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة، أما الأول فقد ختم مصنفه بكتاب جامع ضمه صنوفا من أحاديث الأخلاق، وأما الثاني فقد جعل من ضمن كتب مصنفه كتاباً في الأدب وكتابا في الزهد[7]، وهي من مظان أحاديث الأخلاق.

---

[1] معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه لأبي الليث الخير آبادي، ص 74.

[2] سنن أبي داود، ص521.

[3] جامع الترمذي، ص321، ص442.

[4] سنن النسائي، ص523.

[5] سنن ابن ماجة، ص393، ص 444.

[6] معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه لأبي الليث الخير آبادي، ص157.

[7] المرجع نفسه، ص146.

[8] مصنف ابن أبي شيبة، 373/8، 133/12.

الأجزاء الحديثية:

هي كتب حديثية تتضمن بابا واحدا من أبواب الدين[1]، وقد بدأت عناية المحدثين بالتصنيف في باب الأخلاق في وقت مبكر سبق العصر الذهبي للتصنيف في السنة النبوية، حيث صنف الإمامان عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح في القرن الثاني الهجري كتابيها الذين جمعا فيهما أحاديث الزهد والأدب والأخلاق ووسماهما بالزهد، وصنف عبد الله ابن المبارك أيضا في الرقائق[2]، تلاهما الإمام أحمد بن حنبل الذي صنف كتابا في الزهد[3]، ولم يكتف الإمام البخاري بعدهم بتضمين صحيحه كتاب الأدب، بل صنف كتابا مستقلا واسعا في أحاديث هذا الباب، ووسمه بالأدب المفرد[4].

ولعل النقلة النوعية بعد هؤلاء الأعلام في تصنيف الأجزاء الحديثية في باب الأخلاق هو إفراد أحاديث الأخلاق في أجزائهم الحديثية التي حملت في عناوينها لفظ الأخلاق أيضا، حيث صنّف الحافظ ابن أبي الدنيا في القرن الثالث الهجري كتابه مكارم الأخلاق[5]، وتوسع في التصنيف في أحاديث الأخلاق ما بين مكارمها ومساوئها، بحيث أفراد أبوابا متنوعة منه في أجزاء مستقلة مثل: الصبر وثوابه، القناعة والعفاف، قرى الضيف، الحلم، ذم الحسد، ذم الغيبة... وغيرها[6]، تلاه في القرن الرابع الهجري أبو بكر الخرائطي بكتابيه الذي يحث في أحدهما على محاسن الأخلاق، ويحذر في الآخر من مساوئ الأخلاق، وهما تباعا: كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، وكتاب مساوئ الأخلاق ومذمومها[7]، ثم سليمان الطبراني الذي صنّف أيضا في مكارم الأخلاق[8].

---

[1] مجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه لأبي الليث الخير آبادي، ص15.

[2] وقد نشرته دار الكتب العلمية ببيروت في كتاب واحد مع الزهد تحت عنوان "كتاب الزهد ويليه كتاب الرقائق" بتحقيق حبيب الرحمان الأعظمي.

[3] طبعته دار النهضة العربية ببيروت بتحقيق محمد جلال شرف.

[4] له عدة طبعات، وقد خدم الكتاب ما بين شارح ومفهرس ومبينا لمراتب أحاديثه.

[5] طبعته مكتبة القرآن بتحقيق مجدي السيد إبراهيم.

[6] طبعت مكتبة القرآن معظمها.

[7] أما مكارم الأخلاق فطبعته مكتبة الرشد بالرياض بتحقيق عبد الله بن بجاش الحميري، وأما مساوئ الأخلاق فطبعته مكتبة السوادي بجدة بتحقيق مصطفى أبو النصر الشلبي.

[8] طبع لأول مرة كاملا سنة1434هـ-2013م بتحقيق محمد بن مصطفى أبو بسطام، وكان قد طبع من قبل في كتاب واحد مع مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا بتحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا من طرف دار الكتب العلمية سنة 1409هـ-1989م.

ومع تخصيص الأخلاق بالتصنيف المستقل استمر المحدّثون في جمع أحاديث الآداب التي تُدرج ضمن أنواعها مكارم الأخلاق كما صنع الإمام البيهقي في القرن الخامس الهجري في كتابه "الآداب" الذي قال في مقدمته بعد أن ذكر مختصريه في الاعتقاد والفروع: ((أردت والمشيئة لله عز وجل أن أضم إليه كتابا مختصرا فيما رُوي في البر والصلة ومكارم الأخلاق والآداب والكفارات ليكون كافيا مع المختصرين لمن لم يصل إلى تحصيل الكتب المبسوطة))[1]، كما صنّف جزءاً حديثيا باسم شعب الإيمان أدخل فيه أنواعا شتى من الآداب والأخلاق للتأكيد على أن كمال الإيمان في حسن الأخلاق، من ذلك باب في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه[2]، باب في الحياء وفصوله[3]، وباب في حسن الخلق[4] ... وغيرها.

المطلب الثاني: المباحث الأخلاقية في كتب مصطلح الحديث:

لقد أصّلت كتب مصطلح الحديث بهذه المباحث الأخلاقية ما كان حيّاً في حقيقة الأمر من قبل في فترة الممارسة والتطبيق في آداب المشتغلين بالسنة النبوية، فحرص هؤلاء المتأخرون لأصالة الأخلاق الحميدة فيمن يروي الحديث ويطلبه على عدّ معرفة آداب المحدِّث وآداب طالب الحديث بما اشتملته في ثناياها من الإشارة إلى مكارم الأخلاق في أنواع علوم الحديث، وقد تنوعت عباراتهم في التنويه بتلك المباحث الأخلاقية في كتبهم التي تتابع تصنيفها عبر القرون المتتالية.

فقد أشار إليها القاضي الحسن بن عبد الرحمان الرامهرمزي في كتابه "المحدث الفاصل بين الراوي والواعي" تحت فصل أسماه: أوصاف الطالب وآدابه، وذكر فيه روايات شتى في بيان هذه الآداب، ومن أمثلتها الواضحة في بيان الصلة الوثيقة بين محاسن الأخلاق والعلوم ما رواه بإسناده إلى عمرو بن قيس الملائي قال: ((كان يقال: تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من علّمكم))[5].

---

[1] الآداب للبيهقي، ص 4.

[2] الجامع لشعب الإيمان للبيهقي، 435/6.

[3] المرجع نفسه، 144/10.

[4] المرجع نفسه، 350/10.

[5] المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي، ص 205.

وخصّ الخطيب البغدادي الذي صنّف في أنواع كثيرة من علوم الحديث موضوع أخلاق المحدثين وآدابهم بكتاب مستقل أسماه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"، لم يترك فيه أساسا من أسس سماع الحديث وروايته إلا عرض إلى تأصيله الأخلاقي، وقد قال في مقدمته: ((وأنا أذكر في كتابي هذا بمشيئة الله ما بنقلة الحديث وحمّاله حاجة إلى معرفته واستعماله، من الأخذ بالخلائق الزكية والسلوك للطرائق الرضية في السماع والحمل والأداء والنقل))[1]، وقد أسند في كتابه عبارات القوم التي تؤكد أصالة الأخلاق في علوم الحديث، وتحث على الحرص على مكارم الأخلاق قبل طلب الحديث، من ذلك ما أسنده إلى إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال: ((قال لي أبي : يا بني ايت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذلك أحب إليّ لك من كثير من الحديث))[2]... وغيرها.

وأشار إليها القاضي عياض تحت باب "في آداب طالب السماع وما يجب أن يتخلق به" من كتابه "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع"، وقد قال في فاتحة هذا الباب: ((يجب على كل طالب علم قبل الشروع فيه التخلق بأخلاق أهله، والتزام زيهم، والتأدب بأدب حملته، ولزوم السكينة والوقار، والبكور لطلبه، وإخلاص النية لله فيه، والتواضع لمن يأخذ عنه، وتعظيمه وتوقيره، والصبر على ما يلقاه منه أو من رفاقه من جفاء ...))[3].

وأشار إليها الحافظ ابن الصلاح في المقدمة في نوعين من أنواع علوم الحديث تباعا، وهما: معرفة آداب المحدث، ومعرفة آداب طالب الحديث، وعلى طريقته سار النووي وابن كثير[4]، وبيّن ابن دقيق العيد آداب المحدث ثم آداب الطالب في باب واحد[5]، وكذلك فعل الطيبي في الخلاصة حيث ختم كتابه بخاتمة في آداب الشيخ والطالب والكاتب، وجعل لكل واحد منها فصلا[6]، وتحدث الذهبي في الموقظة عن آداب المحدث[7]، وجمع ابن حجر بينها في نوع واحد باسم آداب الشيخ والطالب[8].

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، 120/1.

[2] المرجع نفسه، 121/1.

[3] الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، ص45.

[4] علوم الحديث لابن الصلاح، ص 235 و ص 245، وتدريب الراوي في تقريب النواوي للسيوطي، ص 245 و ص 253، واختصار علوم الحديث لابن كثير، ص243 و ص247.

[5] الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد، ص 350 وص376.

[6] الخلاصة في معرفة الحديث للطيبي، ص 167 وما بعدها.

[7] الموقظة للذهبي، ص53.

[8] نزهة النظر لابن حجر، ص 146.

وقد تتابعت هذه الكتب وما صنف بعدها في المصطلح على التنويه بالقيم الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها طالب الحديث وشيخه في هذه المباحث منه، ومن أبرزها: تصحيح النية، تطهير القلب من أغراض الدنيا، الصدق، التواضع، السكينة والوقار، الانصات للسماع والصمت بين يدي محدثه وتعظيمه، الصبر، عدم كتمان العلم، تحديث الناس بما ينفعهم ... وغيرها، ولعل مما يبرز أهمية الأخلاق عند المحدثين جعلهم من آداب المحدِّث ختم مجالس إملائه بنوادر وحكايات وإنشادات مسندة في الزهد والآداب ومكارم الأخلاق.

المطلب الثالث: التأصيل الأخلاقي لبعض أنواع علوم الحديث:

تقوم علوم الحديث أساسا على نقد الراوي والمروي وقوانينه لمعرفة صحة ما أضيف إلى النبي ﷺ، وقد أحوج هذا أئمة الحديث إلى البحث عن حال الراوي لمعرفة صدقه من كذبه فيما يرويه من سنة النبي ﷺ، وهذا يؤدي بهم إلى الكلام في الراوي بما فيه من أحوال وأوصاف مشينة تحذيرا من الأخذ عنه، فيوقعهم فيما يشبه الغيبة، ولذا حرص المحدِّثون على التفريق بينهما لاختلاف مقاصد الفعلين، وأصّلوا أخلاقيا لعلم الجرح والتعديل الذي يبحث في أحوال الرواة، وضبطوه بقواعد أخلاقية صارمة حتى لا يخرج عن حدود مقصده في حفظ السنة النبوية، والحديث في هذه الجزئية يأتي في شقين:

البعد الأخلاقي في اشتراط العدالة الدينية في الراوي:

اشترط جماهير أئمة الحديث والفقه في من تقبل روايته أن يكون عدلا في دينه، والمراد بالعدالة الدينية عندهم تلك الملكة التي تحمل المرء المسلم البالغ العاقل على ملازمة التقوى والمروءة حتى يحصل الوثوق بصدق ما يحدّث به امتثالا لأمره تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[الحجرات6]، وتعرف عدالته الدينية باجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر والترفع عن ملازمة المباحات المخلة بالمروءة[1]، ولقد ارتبطت المروءة أساسا بمحاسن الأخلاق، حيث تعرّف بأنها آداب إنسانية تحمل مراعاتها على التحلي بمكارم الأخلاق وجميل العادات، والتخلي عن مساوئ الأخلاق وذميم العادات[2]، فيجتمع في صاحبها التخلق بالخصال المحمودة شرعا وعرفا، وبهما معا تكتمل عدالته الدينية .

[1] الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص 101 – 102 وص 111، علوم الحديث لابن الصلاح، ص218، نزهة النظر لابن حجر، ص 58، فتح المغيث للسخاوي، 2/5-6.

2 المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي، ص569، ومعجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه لأبي الليث الخير آبادي، ص139.

التأصيل الأخلاقي لعلم الجرح والتعديل:

لقد عاب البعض على أئمة النقد كلامهم في الرجال بما فيهم، وسمّوا ذلك غيبة[1]، حتى أن أحدهم قد قال في يحيى بن معين شعرا يعيب عليه ذلك:

ولابن معين في الرجال مقالة سيسأل عنها والمليك شهيد

فإن تك حقا فهي في الحكم غيبة وإن تك زورا فالقصاص شديد[2]

ولما كانت الغيبة محرمة شرعا، وهي من مساوئ الأخلاق التي ينبغي أن يترفع عنها العلماء والصالحون، حرص المحدِّثون على تفنيد شبهة الغيبة في تجريحهم الرواة، فإنهم إنما جرحوا من تلبّس بكذب أو تهمة به، أو فسق، أو بدعة، أو غفلة، أو كثرة خطأ من باب التثبت في الدين، والشهادة في الدين أحق أن يتثبت فيها من الشهادة في الحقوق والأموال، فاختلف مقصد تجريح الرواة عن مقصد الغيبة التي يراد بها الطعن في الناس، فخرج الكلام في الرجال من دائرة الخلق المذموم شرعا وعرفا – الغيبة – إلى دائرة الخلق المحمود شرعا وعرفا، وهو النصيحة للمسلمين، ولذا قال الإمام الترمذي : ((وإنما حملهم على ذلك عندنا والله أعلم النصيحة للمسلمين، لا يظن هم أنهم أرادوا الطعن على الناس، أو الغيبة، إنما أرادوا عندنا أن يبينوا ضعف هؤلاء لكي يعرفوا))[3].

ومما يروى في هذا السياق أن أبا تراب النخشبي – وهو من أهل الزهد والورع – أتى أحمد بن حنبل، فسمعه يقول: فلان ضعيف، فلان ثقة، فقال أبو تراب: لا تغتاب العلماء، فالتفت إليه الإمام أحمد فقال له: ويحك، هذا نصيحة، ليس غيبة[4]، بل كان بعض النقاد يتحرّجون في الكلام في الرواة خوفا وورعا، من ذلك ما روي عن محمد بن بندار قال: قلت لأحمد بن حنبل: إنه ليشتد عليّ أن أقول فلان ضعيف، فلان كذاب، فقال له أحمد: إذا سكتَ أنت وسكتُ أنا، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم[5].

---

[3] العلل الصغير للترمذي في آخر الجامع، ص 608، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص 37.

[4] أسنده الخطيب البغدادي في الكفاية إلى بكر بن حماد الشاعر المغربي، ينظر الكفاية في علم الرواية، ص38.

[5] العلل الصغير للترمذي في آخر الجامع، ص608.

[6] الكفاية في علم الرواية، ص 45.

[7] المرجع نفسه، ص 46.

بل إن لم يبيّن الناقد ما في الراوي من تهمة كان غاشا للمسلمين مفرّطا في أمانة الدين، ولذا قال الإمام مسلم: ((...إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي بتحليل، أو تحريم، أو أمر، أو نهي، أو ترغيب، أو ترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبيّن ما فيه لغيره ممّن جهل معرفته، كان آثما بفعله ذلك غاشا لعوامّ المسلمين))[1]، وعليه فرسالة أئمة الحديث في علمهم القائم على الجرح والتعديل هي رسالة أخلاقية مضمونها أداء الأمانة والنصح للمسلمين، وهي من الأخلاق الواجبة.

وعلى الرغم من مشروعية الجرح والتعديل[2] إلا أن المحدّثين لم يتركوا الباب مفتوحا على مصراعيه، بل أحكموه بجملة من المعايير التي تنمّ عن ورعهم في الكلام في الرواة إلا بقدر الضرورة، بحيث تقرر عندهم أنه لا يجوز تجريح الراوي بسببين مهما أمكن الاكتفاء بسبب واحد، لأن اللجوء إلى التجريح ضرورة، والضرورة تقدر بقدرها[3].

وقد أرفقوا هذه القاعدة باحتياطات أخرى حتى لا تنفلت الأمور عن غاياتها ومقاصدها، من ذلك عدم الالتفات إلى ما يصدر من الناقد بسبب الهوى والتحامل والغضب، وهذا أمر قد تنزّه عنه المتقدّمون في الجملة لوفور ديانتهم وورعهم، إلا أنه قد وُجِد في بعض من تأخر عنهم[4]، وذلك لأن النفس ليست بمعصومة من الفلتات ((وربما حدث غضب لمن هو من أهل التقوى، فبدرت منه بادرة لفظ))[5]، فتلتصق بالراوي تهمة هو بريء منها، ويقع جارحه بغير تحرز في الطعن في مسلم بريء، ولذا كان هذا القيد الأخلاقي من الأهمية بمكان في تحصين هذا العلم من الآفات.

ومن ذلك عدم الالتفات إلى ما يصدر من الناقد بسب الاختلاف في العقائد لما تجرّ إليه من تكفير أو تبديع الناس بعضهم بعضا، وقد ضبط هذا الجانب أخلاقيا بعدم اعتبار المذاهب في الرواية، إلا أن يكون الراوي قد أنكر شيئا متواترا من الشريعة، فإذا لم يكن ذلك، وكان من أهل التقوى والضبط، وزاد بعضهم إن لم يكن داعيا إلى بدعته أو روايا ما يقوي بدعته فإنه معتمد الرواية، يقول ابن دقيق العيد:

---

[1] مقدمة صحيح مسلم، ص 31.

[2] تناولت كتب المصطلح والجرح والتعديل التأصيل الشرعي لهذا العلم، ونفت علاقته بالغيبة بالاستناد إلى جملة من الأدلة الشرعية، ولم أتناول في البحث هذه الجزئية لأن الغرض بيان التأصيل الأخلاقي للجرح والتعديل وليس الشرعي.

[3] فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي، 4/ 364.

[4] الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد، ص 436 – 437، وفتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي، 354/4.

[5] الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد، ص437.

((ومن هذا الوجه، أعني: وجه الكلام بسبب المذاهب يجب أن تتفقد مذاهب الجارحين والمزكّين مع مذاهب من تكلموا فيه، فإن رأيتها مختلفة فتوقف عن قبول الجرح غاية التوقف حتى يتبين وجهه بيانا لا شبهة فيه))[1].

والحقيقة أن صور الاختلاف التي قد تجر إلى الطعن في الراوي دون تحرز أوسع من هذا[2]، وقد عقد ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم وفضله" بابا هامّا في حكم قول العلماء بعضهم في بعض، وذكر عنهم أقوالا في طعن بعضهم في بعض لا يلتفت إليها لأن منشأها غيرة الأقران أو التنافس أو الحسد أو الغضب أو الاختلاف وما إلى ذلك[3].

ويكفي ما ذكِر من أمثلة في بيان أن الأمر عند المحدّثين قد ضبط بمعايير أخلاقية، وقد احتاطوا لجميع صوره مهما كانت بقاعدة هامة، وهي عدم قبول الجرح إلا مفسَّرا، حتى لا يجرح الراوي بما ليس بجارح في واقع الأمر، وألا يقبل الجرح إلا من عالم بأسبابه، ويكون فضلا عن ذلك من أهل التقوى والورع لا يقدم على الجرح إلا ببيّنة[4].

ومع ذلك كان باب الجرح والتعديل رغم مشروعيته وشدة الحاجة إليه في حفظ الدين محفوفا بالمخاطر، وتطلّب من أئمة النقد ورعا شديدا، قد سلم البعض من زلاته، ولم يسلم البعض الآخر منها حتى قيل: ((أعراض المسلمين حفرة من حفر النار، وقد وقف على شفيرها طائفتان من الناس: المحدِّثون والحكام))[5].

الشاهد من الكلام أن سلوك هذا الطريق إن لم يكُ محصّنا بمكارم الأخلاق التي نوّه المحدّثون بأصالتها وأهميتها في علوم الحديث فإن سالكها لن يسلم من الوقوع في مساوئ الأخلاق، ولذا فإن أئمة الحديث لم يغفلوا التأصيل لهذا الفن أخلاقيا بغض النظر عمّا قد وقع فيه بعض النقاد من فلتات النفس في جرحهم لبعض الرواة.

---

[1] المرجع نفسه، ص444.

[2] المرجع نفسه، ص 445 – 450، وفتح المغيث للسخاوي، 368/4 – 369.

[3] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، 2 / 1087 – 1119.

[4] الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص 107 – 110، ونزهة النظر لابن حجر العسقلاني، ص 138 – 139، وتدريب الراوي للسيوطي، ص156.

[5] الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد، ص 453 – 454.

المبحث الثالث: واقع الأخلاق وأسس بعثها في الدرس الحديثي المعاصر:

يتفاوت الحضور الأخلاقي في الدرس الحديثي المعاصر ما بين جانب وآخر من علوم الحديث، وأمامنا في محاولة تقييم هذا الواقع الحديثي والنظر في آفاق بعث القيم الأخلاقية فيه ثلاث زوايا: زاوية البرامج التدريسية في علوم الحديث في مختلف مستوياتها، زاوية البحث العلمي في علوم الحديث، وزاوية التصنيف في علوم الحديث:

المطلب الأول: البرامج التدريسية في علوم الحديث:

لا تُخصّص برامج التكوين والتدريس في علوم الحديث في الجامعات والكليات الإسلامية وأقسام الحديث فيها[3] ضمن مقرراتها ومفرداتها محورا خاصا له علاقة بجانب الأخلاق والآداب على الرغم من أصالتها في علوم الحديث وكونها نوعا من أنواعه دأبت الكتب المؤصلة له على ذكره تباعا، وعلى التنويه بأهميته للمشتغل بالحديث النبوي وعلومه، وقد كان حريا أن تستفتح به برامج التكوين في علوم الحديث قبل الانطلاق في مباحثه ومسائله المختلفة، ولعل الحضور الظاهر للأخلاق في هذه المقررات التدريسية ينحصر في إشارات مقتضبة في محور الجرح والتعديل عند بيان تأصيله الشرعي والتفريق بينه وبين الغيبة، أو ضمن شرح باب آداب المحدث والطالب إذا كان المقرر الدراسي كتابا من كتب مصطلح الحديث التي خصت هذا الباب بنوع من أنواع علوم الحديث كما سلف بيانه.

وعليه فإن الحاجة شديدة إلى مراجعة هذه البرامج ولفت عناية القائمين عليها في مختلف الجامعات والكليات الإسلامية وأقسام الحديث إلى أهمية تخصيص محور أخلاق المحدّثين ضمن مقرراتها التدريسية لاسيما في المستوى التكويني الأول في الدراسات الدنيا[2]، وإن كانت هذه الحاجة ليست محصورة في الحديث وعلومه، بل الواجب إدراج محور الأخلاق في كل العلوم الشرعية لأن الأخلاق جزءًا منها كما تبيّن، وإبعادها من برامج التكوين ساهم مع الأسف -مع أسباب أخرى -في تخريج مكوّنين في العلوم الشرعية بشهادات علمية دون أخلاق.

---

[1] هذا بناء على تتبع عروض التكوين في أشهر الجامعات والكليات الإسلامية من خلال مواقعها الالكترونية.

[2] وهذا ينسجم مع هدي أئمة الحديث الذين حرصوا على طلب الأدب والأخلاق قبل الاشتغال بطلب الحديث، وقد سبق عرض شيء من كلامهم فيما تقدم من هذا البحث.

ثم إن برمجة محور الأخلاق في مقررات التكوين كفيل بأن يحلّ مشكلة عميقة في منظومة التعليم الجامعي، وهي انشغال الطالب بتحصيل النتائج الطيبة في الامتحانات على حساب التحصيل العلمي نفسه، وذلك أن تشرّب الطالب بالقيم الأخلاقية منذ بداية التكوين بوصفها توأمة العلم التي لا ينبغي أن تنفصل عنها، وبكونها ضميره الذي إذا فارقه كان ذلك إيذانا بوفاته روحيا، أو كما قيل ((والعلم بغير ضمير ليس إلا خراب الروح))[1]، إن تشرّب الطالب بهذه القناعة من شأنه أن يثمر كفاءات حقيقة بالشهادة العلمية التي نالت شرفها، وقادرة على المساهمة في جهود استرجاع الدور الحضاري للعلماء في قيادة الأمة.

ولو كان العلم وحده دون أخلاق يكفي في بناء الأمم لكفى ذلك النبي ﷺ، ولما خاطبه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران159]، قال محمد رشيد رضا في تفسير الآية: ((...لأن الفظاظة، وهي الشراسة، والخشونة في المعاشرة، وهي القسوة والغلظة، وهما الأخلاق المنفرة للناس، لا يصبرون على معاشرة صاحبهما وإن كثرت فضائله ورجيت فواضله، بل يتفرقون ويذهبون من حوله، ويتركونه وشأنه لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلق حواليه، وإذا لفاتتهم هدايتك، ولم تبلغ قلوبهم دعوتك))[2]، فالله لم يجمع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حوله بما أتاه من علم وأيده به من معجزات وكرامات، وإنما بما رزقه من مكارم الأخلاق التي نوهت بها الآية الكريمة.

وعليه فإن مسيرة استرجاع الدور الحضاري لأمة الإسلام من ركائزها الأساسية غرس القيم الأخلاقية في أفرادها، وفي الهرم منهم علماؤها ومتعلميها، وفي أعلاه أهل التخصصات الشرعية للمسؤولية الدينية المترتبة عليهم في حفظ الإسلام بمبادئه وتشريعاته وأخلاقه وقيمه، ولما كانت المؤسسات الجامعية الشرعية اليوم هي المراكز الأساسية في تخريج هؤلاء فإن مسؤولية بعث القيم الأخلاقية في متخرجيها وتأهيلهم لحمل راية البناء الحضاري إنما تقع على عاتقها من خلال عروض وبرامج التكوين.

---

[1] عبارة تبناها مالك بن نبي في كتابه "بين الرشاد والتيه" بعد أن نقلها عن الكاتب الفرنسي "رابليز"، ينظر: بين الرشاد والتيه، ص 73وص 80.

[2] تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، 199/4.

المطلب الثاني: البحوث الأكاديمية في علوم الحديث:

لقد تضمنت بعض البحوث العلمية لاسيما المتعلقة بمناهج المحدّثين الإشارة إلى أخلاقهم وآدابهم في ثنايا الترجمة والتعريف بهم، وهو أمر محمود في سياق التأكيد على أن مكارم الأخلاق قيمة ثابتة في سير المحدّثين، ولكنه لا يعكس بمفرده حقيقة الحضور الأخلاقي القوي والأصيل في علوم الحديث، كما ساهمت بعض البحوث العلمية في تحقيق التراث في إخراج وتحقيق بعض الأجزاء الحديثية في موضوع الأخلاق لتضم جهودها إلى جهود الدراسات التحقيقية خارج إطار المؤسسات الجامعية في تمكين الدارسين من الوصول إلى هذه الكتب بكل يسر مطبوعة محققة، ونذكر على سبيل المثال كتاب مكارم الأخلاق للإمام أبي بكر الخرائطي (ت.327هـ) الذي عمل على تحقيق قسم منه في إطار بحث لنيل درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم أتم الباحث نفسه تحقيق القسم الآخر منه لاحقا ليطبع كاملا بتحقيقه[1].

وقد فتح باب الحديث الموضوعي أمام طلاب الحديث في الدراسات العليا آفاقا واسعة للمساهمة علميا في كشف أصالة مكارم الأخلاق في الحديث النبوي وعلومه من خلال انتقاء الموضوعات الأخلاقية التي تعج مصنفات السنة النبوية بأحاديثها، وواقعيا قد أنجِزت فعلا بحوثٌ مهمة تكشف القيم الأخلاقية في موضوعات السنة النبوية من خلال انتهاج أسلوب الحديث الموضوعي من زوايا متعددة.

فمنها دراسات أبرزت موضوع الأخلاق بصفة عامة، مثل: الأخلاق في ضوء السنة النبوية[2]، ومنها دراسات أبرزت أخلاق النبي ﷺ، مثل: أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة[3]، ومنها دراسات كشفت صنوفا من مكارم الأخلاق في السنة النبوية، مثل: السخاء في الحديث النبوي الشريف[4]، الأحاديث الواردة في الرفق ودوره في كسب قلوب الناس[5]، ومنها دراسات كشفت القيم الأخلاقية في مجالات معينة، مثل: أخلاق المهنة في السنة النبوية[6]،

---

[1] صدرت طبعته الأولى سنة 1427هـ – 2006م بتحقيق د. عبد الله بن بجاش ثابت الحميري، وقد طبعته مكتبة الرشد بالرياض.

[2] عنوان رسالة دكتوراه للباحثة هدى بودا بن محسن عبد المنان، كلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة.

[3] عنوان رسالة دكتوراه للباحث أحمد عبد العزيز قاسم الحداد، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية.

[4] عنوان رسالة دكتوراه للباحث عبد الله عنتر أحمد، تخصص حديث نبوي شريف، كلية الإمام الأعظم الجامعة، العراق.

[5] عنوان رسالة ماجستير للباحث سليمان صالح محمد الشجراوي، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية.

[6] عنوان رسالة ماجستير للباحثة نهاد محمد حسين العوامرة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.

ومنها دراسات بحثت أسس التنشئة الأخلاقية من خلال المنهج النبوي، مثل: المنهج النبوي الشريف في تربية الجوانب الخلقية والنفسية والعقلية[1].

فهذه نماذج فقط من عناوين تلك الدراسات، وقد بينا سابقا أن موضوع الأخلاق في مصادر السنة أوسع من أن يحصر في كتب وأبواب معينة، وعليه يمكن جعل هذا الأسلوب المعاصر في شرح السنة النبوية حلقة وصل مثمرة مع التقسيم الموضوعي للسنة النبوية الذي اعتمدته المصنفات الحديثية المرتبة على الموضوعات وخدمتها للأخلاق من خلال ذلك.

المطلب الثالث: التصنيف في علوم الحديث:

وجد الباحثون المعاصرون في علوم الحديث أنفسهم أمام سلسلة ثرية من القراءات المتباينة التي قدّمها محدّثو عصر التأصيل والتنظير في إطار فهم صنيع المحدّثين في فترة الممارسة الحديثية تصحيحا وتضعيفا وتعليلا، فأرادوا الإدلاء بدلوهم في علوم الحديث محاولين تثبيت تلك القراءات أو نفيها، وقد ساقت الحماسة بعضهم في الدفاع عن رأي معين أو معارضة رأي آخر، أو محاولة صناعة رأي جديد إلى شيء من التطاول والتشكيك والعبارات الحادة التي شوّهت النقاش العلمي الذي كان من المفترض أن يتزين بالاحترام والأدب وحسن العبارة وصدق النصيحة.

وفيما يلي بعض النماذج للتأكيد على ما آلت إليه بعض النقاشات العلمية في مسائل الحديث وعلومه من أساليب تتعارض مع أصالة الأخلاق في هذا العلم:

المثال الأول: ((...وإن كان يتظاهر بمدح مسلم وكتابه، ولكن أعماله وجهوده وإصراره على منهجه الباطل، وتطويره له من وضع إلى آخر، وتلونّه فيه، من أعظم البراهين أنه لا يريد خيرا من وراء هذا التطوير والتهويل والتلوّن))[2].

المثال الثاني: ((...هذا هو مبلغ أمانة المعترض، عامله الله بما يستحق))[3].

المثال الثالث: ((...وجدت الرجل يتخبط خبط عشواء، فيتكلف ويتعمق لإثبات ما يريد ويوجه نصوص الأئمة بحسب هواه... ، ولا أدري سببه التعمد والهوى أم العجمة أم كلاهما))[4].

---

[1] عنوان رسالة ماجستير للباحث إبراهيم سالم يعقوب بطران، جامعة اليرموك الأردن.

[2] التنكيل بما في توضيح المليباري من الأباطيل لربيع المدخلي، ص6.

[3] طليعة فقه الإسناد لطارق بن عوض الله، ص24.

[4] نقد مجازفات الدكتور حمزة المليباري لأحمد الزهراني، ص8.

وهذا المسلك وإن لم يسلم منه عدد من المعاصرين الذين دخلوا في مثل هذه السجالات العلمية الاجتهادية إلا أنه شاع أكثر عند فئة من الناس ترى أن الحاجة إلى الجرح والتعديل لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وينفون أن يكون هذا العلم قد ارتبط بفترة تاريخية اضطر فيها أئمة الحديث إلى الكلام في الرجال بما فيهم صونا للسنة النبوية من التبديل والتحريف، وقد مرّت معنا نصوص أئمة النقد في التأكيد على هذا المقصد، ثم إنهم قد مارسوه مع كثير من الورع والاحتياط، ومع ذلك لم يسلموا من الزلات والفلتات التي أوقعتهم في كلام بعضهم في بعض بما ليس فيهم لأغراض مختلفة .

لقد أوقع فتح هذا الباب في الفترة الحاضرة بحجة النصح في الدين إلى تضليل البعض لمن يخالفهم في مسألة من مسائل الحديث التي اختلفت فيها تطبيقات المتقدمين أو قراءات المتأخرين عنهم، من ذلك على سبيل التمثيل تضليل بعضهم لمن فسّر إخبار الإمام مسلم في مقدمة صحيحه بأنه سيبيّن فيه العلل[1] بأنه سيصنع ذلك في آخر الأبواب[2]، حيث اعتبر المخالفُ في هذه المسألة أن تبنّي هذا الرأي حملة من حملات هدم السنة النبوية، وأنه عمل مريب يشبه دراسات المستشرقين، وأن قائله صاحب هوى وعقيدة فاسدة[3]... وغيرها من الأمثلة التي لا يتسع المقام لذكرها.

والحقيقة أن هذه الظاهرة ليست وليدة هذه الفترة الزمنية فقط، فإن التنافس والغيرة بين أصحاب الاهتمام الواحد والمقاصد المشتركة لم تنقطع عبر العصور بسبب تزاحمهم على الغرض نفسه وبلوغ بعضهم مراتب لم يصلها البعض الآخر[4]، وهذه الحالة لا تخرج عنها مهما كانت دوافع أصحابها في الانتقاص من المخالف، ودفعها يكون بالصبر الحسن، ولقد أحسن المُناوي حين قال: ((من الصبر الحسن التصبر على ما ينشأ عن الأقران وأهل الحسد سيما ذوي البذاءة منهم))[5]، فجواب هؤلاء في كل زمن هو عدم الالتفات إلى كلامهم والانزلاق إلى الرد عليهم بما يشبه كلامهم، فتختفي فوائد العلم في خضم تلك العبارات السيئة والألفاظ البعيدة عن مكارم الأخلاق .

---

[1] مقدمة صحيح الإمام مسلم، ص 21، والمراد قوله: ((قد شرحنا من مذهب الحديث وأهله بعض ما يتوجه به من أراد سبيل القوم ووفق لها، وسنزيد إن شاء الله تعالى شرحا وإيضاحا في مواضع من الكتاب عند ذكر الأخبار المعللة إذا أتينا عليها في الأماكن التي يليق بها الشرح والإيضاح)).

[2] ما هكذا تورد يا سعد الإبل لحمزة المليباري، ص 22 – 24.

[3] المرجع نفسه، ص 35 – 36، التنكيل بما في توضيح المليباري من الأباطيل لربيع المدخلي، ص264.

[4] إحياء علوم الدين للغزالي، ص 1093 – 1094.

[5] فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، 234/4.

بل الواجب على المشتغلين بالحديث وعلومه تنقية هذا العلم من هذا المفهوم الخاطئ الذي أدخل عليه، فإن الجرح والتعديل إنما ولد في بيئة المحدّثين لمقصد نبيل، وقد تحقق بجمع السنة النبوية في المصنفات وتمييز صحيحها من سقيمها بمعرفة أحوال رواتها في عصر الرواية، فلا ينبغي استغلال هذا العلم الحديثي في مسالك التنافس والاختلاف بين أصحاب التخصصات المشتركة بحجة النصح في الدين.

وفي الختام أقول إن الحاجة ماسة إلى إعادة تهذيب العلوم بالأخلاق في مسيرة بناء الأمة، يقول مالك بن نبي: ((إن العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية، فهذه تعد خطرا في مجتمع ما زال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم))[1]، وعليه فإن علوم الحديث والعلوم الشرعية عامة هي حجر الأساس في البناء الحضاري لأنها علوم أخلاقية في بنيتها، ولها دور دعوي في تهذيب العلوم المادية بالأخلاق.

خاتمة:

عالج هذا البحث أصالة القيم الأخلاقية وتجلياتها في علوم الحديث، ثم نظر في آفاق بعث هذه القيم في الدرس الحديثي المعاصر الذي بات يفتقد تلك الروح الأخلاقية التي امتزجت بعلوم الحديث منذ نشأتها، وقد وصل إلى جملة من النتائج هذه أهمها:

1. أن الأخلاق في الإسلام حاضرة مع المسلم في كل أحواله الظاهرة والباطنة، ومن هذه الأحوال العلوم الشرعية التي تتأكد فيها ألحّية استحضار البعد الأخلاقي لمسؤولية العلماء في تبليغ الدين ونشر علومه المختلفة خلفا للأنبياء.

2. أن هدي علماء الإسلام الأوائل في طلب العلوم هو التهيؤ لها بالآداب والأخلاق والحرص عليها أكثر من حرصهم على الاستزادة من المعارف لعلمهم بأصالة الأخلاق في العلوم.

3. أن القيم الأخلاقية مطلوبة في كل العلوم الشرعية، ولذا لم يخل علم من علومها إلا وجد من كتب في بيان آداب وأخلاق أهله.

4. أن علاقة مكارم الأخلاق بعلوم الحديث النبوي عميقة جدا، حيث تأسست هذه العلوم في أصل نشأتها المعنوية والفعلية على الروح الأخلاقية المبثوثة في روايات السنة النبوية التي هي حلقة عمل المحدِّثين رواية وتمحيصا وفهما، ومنها تأصّلت مباحثها وقواعدها وآدابها.

[1] وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي، ص38.

5. أن مكارم الأخلاق في علوم الحديث قيمة أصيلة بين المحدِّثين حرَص على التأكيد عليها من كَتب في مصطلح الحديث، وهم يتداولون عبارة متقاربة مفادها أن علم الحديث علم شريف يناسب مكارم الأخلاق ومحاسن الشّيَم، وينافر سيء الأخلاق ومشاين الشّيَم.

6. أن تجليات القيم الأخلاقية في علوم الحديث استغرقت جانبا الرواية والدراية معا، فظهرت في كتب وتراجم أبواب المصنفات الحديثية المرتبة على الموضوعات الجامعة منها أو المتعلقة بالأحكام أو الأجزاء الحديثية من خلال موضوعات أخلاقية أو تتقاطع مع الأخلاق في جانب من الجوانب، وكذلك في مباحثها التي تعنى بتأصيل القيم الأخلاقية في سلوك المحدّث وطالب الحديث من خلال تخصيص بيان هذه الآداب بنوع أو أكثر من أنواع علوم الحديث، وتجلّت أيضا في التأصيل الأخلاقي للركن الأساس في علوم الحديث، وعليه تتأسس عملية النقد الحديثي برمّتها، وهو علم الجرح والتعديل الذي لم يُكتفَ في التأصيل له ببيان مشروعيته اعتمادا على جملة من النصوص والأدلة الشرعية، بل من خلال التأكيد على أن رسالته رسالة أخلاقية رغم التباس ظاهره بالغيبة المحرمة شرعا والمنبوذة عقلا وعرفا.

7. أن القيم الأخلاقية في علوم الحديث النبوي في الدرس الحديثي المعاصر تفتقد تلك الأصالة المكينة التي كانت عليها في منهج من سبقهم، إذ لم تكن المعارف الحديثية عندهم منفصلة عن قيمها المعنوية، ولم يكن سلوكهم في الطلب والتحديث إلا تجسيدا لتلك المكارم التي تعلموها من معايشتهم لتعاليم الأخلاق المبثوثة في السنة النبوية.

8. أن آفاق بعث القيم الأخلاقية في الدرس الحديثي المعاصر تتنوع ملامحها، ولعل من أبرزها غرس هذه الأخلاق في طلبة تخصصات الحديث خاصة والعلوم الشرعية عامة من خلال اعتماد محور أخلاق المحدثين وطلبة الحديث ضمن مقررات البرنامج التدريسي في فاتحة المستوى التكويني الأول في علوم الحديث، ومن هذه الآفاق أيضا التشجيع على بحث الموضوعات الأخلاقية في السنة النبوية باعتماد أسلوب الحديث الموضوعي الذي يمثل حلقة الاتصال مع التقسيم الموضوعي الذي سلكه المصنفون في جمع وترتيب الأحاديث النبوية، ومن هذه الآفاق أيضا العمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة حول علم نشأ في بيئة علوم الحديث لتحقيق مقاصدها في صيانة وحفظ السنة النبوية، ومن واجب المشتغلين بعلوم الحديث اليوم تنقيتها من تلك الأفكار التي تغيّب القيم الأخلاقية فيها لأن مكارم الأخلاق توأمة علم الحديث وروحه الذي إذا انفصلت عنه صارت معارفه مكتسبات ميتة لا تبني عالما ينتظر منه أن يساهم في مسيرة بناء الأمة.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادروالمراجع:

1.إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط4، القاهرة: مجمع اللغة العربية ومكتبة الشروق الدولية، 1425هـ-2004م.

2.أحمد بن الحسين البيهقي، الآداب، ت: أبو عبد الله السعيد المندوه، ط1، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1408هـ-1988م.

3.أحمد بن الحسين البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1423هـ-2003م.

4.أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1417هـ-1997م.

5.أحمد بن شعيب النسائي، المجتبى من السنن المشهور بسنن النسائي، عمان والرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ت.

6.أحمد بن صالح الزهراني، نقد مجازفات الدكتور حمزة المليباري، أبو ظبي: دار الإمام مالك.

7.أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ-1988م.

8.أحمد بن علي بن ثابت الشهير بالخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ت: محمد العجاج الخطيب، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1416هـ-1996م.

9.أحمد بن علي بن ثابت الشهير بالخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، 1357هـ.

10. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الرياض وعمان: بيت الأفكار الدولية.

11. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ت: نور الدين عتر، ط3، دمشق: مطبعة الصباح، 1421هـ-2000م.

12. أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ط2، ت: عبد العظيم الشناوي، القاهرة: دار المعارف.

13. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1429هـ-2008م.

14. إسماعيل بن كثير الدمشقي، اختصار علوم الحديث، ت: ماهر الفحل، ط1، الرياض: دار الميمان، 1434هـ-2013م.

15. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م.

16. الحسن بن عبد الرحمان بن خلاد الرامهرمزي، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، ت: محمد عجاج الخطيب، ط1، بيروت: دار الفكر، 1391هـ-1971م.

17. الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، الخلاصة في معرفة الحديث، ت: أبو عاصم الشوامي، ط1، القاهرة: المكتبة الإسلامية، 1430هـ-2009م.

18. ربيع بن هادي المدخلي، التنكيل بما في توضيح المليباري من الأباطيل، الرياض: مكتبة ابن قتيبة، د.ت.

19. سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، الرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ت.

20. السيد الشحات أحمد حسن، الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1988م.

21. طارق بن عوض الله، طليعة فقه الإسناد وكشف حقيقة المعترض على الأئمة النقاد، ط1، أبو ظبي: دار المحجة، 1424هـ – 2003م.
22. عبد الرحمان بن أبي بكر الشهير بجلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ط1، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1424هـ-2003م.
23. عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1403هـ-1983م.
24. عبد الله بن محمد الشهير بأبي بكر بن أبي شيبة، المصنف، ت: حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد اللحيدان، الرياض: مكتبة الرشد، د.ت.
25. عبد الله بن محمد بن عبيد الشهير بابن أبي الدنيا، مكارم الأخلاق، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، د.ت.
26. عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، القاهرة: دار الحديث، 1432هـ-2003م.
27. عثمان بن عبد الرحمان الشهير بابن الصلاح، علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، ت: نور الدين عتر، بيروت ودمشق: دار الفكر، د.ت.
28. علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، ت: محفوظ الرحمان زين الله، ط1، الرياض: دار طيبة، 1427هـ.
29. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ت: محمد الصديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة، د.ت.
30. عياض بن موسى اليحصبي الشهير بالقاضي عياض، الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، ت: السيد أحمد صقر، ط1، القاهرة وتونس: دار التراث والمكتبة العتيقة، 1389هـ-1970م.
31. مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط2، دمشق: دار الفكر، 1423هـ – 2002م.
32. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ط2، دمشق: دار الفكر، 1423هـ – 2002م.
33. محمد أبو الليث الخير آبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه، ط1، عمان: دار النفائس، 1429هـ-2009م.
34. محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، القاهرة: مكتبة المتنبي.
35. محمد بن أحمد بن عثمان الشهير بأبي عبد الله الذهبي، الموقظة في مصطلح الحديث، ت: عمرو عبد المنعم سليم، ط1، دار أحد، 1414هـ-1994م.
36. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ت: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1419هـ-1998م.
37. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، القاهرة: دار هجر، 1422هـ-2001م.
38. محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: شعيب الأرنؤوط، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414هـ-1993م.
39. محمد بن عبد الرحمان السخاوي، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، ت: علي حسين علي، ط2، دار الإمام الطبري، 1412هـ-1992م.

40. محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه أو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ط1، القاهرة: دار الحرمين، 1417هـ-1997م.
41. محمد بن علي بن وهب الشهير بابن دقيق العيد، الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث المعدودة من الصحاح، ت: قحطان عبد الرحمان الدوري، ط1، عمان: دار العلوم، 1427هـ-2007م.
42. محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، جامع الترمذي، الرياض وعمان: بيت الأفكار الدولية، د.ت.
43. محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، بيروت: دار ابن حزم، 1426هـ – 2005م.
44. محمد بن مكرم بن علي الشهير بجمال الدين بن منظور، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، د.ت.
45. محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، عمان والرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ت.
46. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، ط3، مصر: دار المنار، 1367هـ.
47. محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط2، بيروت: دار المعرفة، 1391هـ – 1972م.
48. مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ت: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1419هـ-1998م.
49. يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الرياض وعمان: بيت الأفكار الدولية، د.ت.
50. يوسف بن عبد الله بن محمد الشهير بابن عبد البر الأندلسي، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، ت: عبد المعطي أمين قلعجي، ط1، دمشق وبيروت والقاهرة: دار قتيبة ودار الوعي، 1414هـ-1993م.
51. يوسف بن عبد الله بن محمد الشهير بابن عبد البر الأندلسي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط2، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د.ت
52. يوسف بن عبد الله بن محمد الشهير بابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، ت: أبو الأشبال الزهيري، ط1، الدمام: دار ابن الجوزي، 1414هـ-1994م.